الثورة !..

بقلم أحمد بن بلّة

يصدر هذا الشهر عن دار الاداب الكتاب المنتظر « مذكرات احمد بن باه » كما أملاها على روبير ميرل . وهي من ترجمة العفيف الاخضر . وننشر فيما يلي فصلا من هذا الكتاب الرائع .

في نهاية مارس (اذار) ١٩٥٢ جاء بوديسه الصافي ليراني في مكان المحادثة بالسجن ، وبواسطة الحارس ناولني كيلو من الخبز لم يسلم لي الا بعد ان شطر من الوسط ، مثلما هي العادة . انه روتين السجون الذي لا يتغير ولا يجدي : فقد كان احد طرفي الرغيف يحتوي على مبرد قوي .

وشرعنا في العمل ، بمشاركة ستين سجينا سياسيا ، كنا نعيش بينهم . واذا كان لم يوجد بينهم خائن واحد ليشي بنا ، فذلك يبرهن على قيمة مناضلينا في المنظمة الخاصة ، وعلى العناية التي تم بها اختيارهم .

اذا كنت ما زلت اذكر ، فان الاخ كيركبان بن ناصر هو الذي كان ، يوما بعد يوم ، يبرد قضبان نافذة كانت تشرف على الباحة . لقد كان ميكانيكيا بالمهنة . واتم مهمته بمهارة رائعة . وبينما كان المبرد يفل ، شيئا فشيئا ، الحديد الذي كان يفصلنا عن الحرية ، كنا نحن الستين سجينا ننشد في جوقة لكي نغطي ضجيج المبرد .

وكان قد اتفق الراي على ان يحاول اثنان منا فقط الفرار : محساس (١) وانا. كانت الباحة مغلقة بجدار ارتفاعه خمسة امتار تقريبا. ولكن هذا الجدار كان مضاعفا على بعد صغير بجدار ثان اكثر علوا وبين الاثنين طريق يطوف به خفراء السجن ليلا . ولقد اتفقنا على ان نصعد على هرم من السجناء لاجتياز الجدار الاول ، وبان يلقي لنا حبل من الخارج لنجتاز الجدار الثاني .

ان في كل فرار مفاجآت سيئة على العموم . وقد اجتزنا بدون صعوبات العقبة الاولى . وعندما وصلت الى اعلى الجدار الاول ، رايت بسرور اقوى من اي تعبير ، بان الحبل معلق على طول الجدار الثاني في المكان الذي اتفقنا عليه . ولكن اكتشفت في الوقت نفسه ، بضيق ، عمودا مكهربا عرضه متر ونصف تقريبا . يمتد على الجانب الاخر من الجدار الذي كنت اجثم على قمته . وعندئذ فكرنا بانه من المستحيل ان نتعلق بالحبل بايدينا ونتساب معه الى الارض . كان يجب ، اذن ، ان ننتصب على الجدار ، مجازفين بالموت بصدمة التيار الكهربائي او بكسر فخذ ، وان نثب على عرض متر ونصف وعلى عمق خمسة امتار ، لنلملم انفسنا من على ارض طريق الخفراء المبلطة .

جربت حظي انا اولا لاني كنت في صحة ممتازة . ونجحت تمام النجاح ، ولكن محساس لم يكن محظوظا . فقد التوت رجله ، وتضور ساعده عند الهبوط . وفهمت وانا ارفعه بانه سيكون من الصعب عليه اجتياز الجدار الثاني . امسكت ، اولا بالحبل وبالارتكاز على الجدار بكلتا ساقي ، على طريقة متسلقي الجبال Alpiniste ، بلغت القمة. كنت ارقص الحبل لاشعار محساس بان دوره قد آن . لم استطع ان ارى وجهه لان الليل كان بهيما ، ولكن بسماع تلاحق انفاسه ، ادركت انه كان في تعب شديد . كنت مفرجا ساقي على الجدار . وتركت فخذي يتدلى عموديا مع الحبل . حتى يستطيع ان يستمسك به عندما يصل الى مستواي وعندئذ استطيع ان انحني وامسكه من يده حتى اساعده على الصعود الي ، واخيرا رايت وجهه يظهر كبقعة صفراء انفصلت من الظلام . ورايت يده على بعد اقل من ٤٠ سنتمترا من كعبي ، ولكنه لم يفلح في الوصول اليها ، فسقط الى نقطة انطلاقه الاولى . ومن سماع صفير انفاسه المتقطعة في الظلام ، ادركت كم كان قد كلفه ذلك من الجهد ، فانحنيت وقلت له في مثل الزفرة « اعد كرة اخرى » .

ورايته مرتين اخريين يظهر على اقل من متر من كعبي ثم يسقط . كنت احس باني يائس لانه كان من المستحيل علي ان انجده . كنت منحنيا

---

١ ــ سماه بن بله وزيرا للاصلاح الزراعي وبعد انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥ انضم للعقيد بومدين . ــ روبير ميرل ــ

عليه بالقدر الذي استطيع دون ان افقد توازني . وكل ما كنت استطيع عمله ، كان انتظار صعوده الى مستوى فخذي . وفي المرة الثالثة ، قال لي من الاسفل في زفرة :

ـ امش ، امش ، احمد ، انت نجوت .

قلت له : « لا ، حاول مرة ايضا » .

احسست الحبل يتوتر تحت اصابعي ، وادركت انه يقوم بمحاولة رابعة . كنت اشك في نجاحه . لاني لاحظت كيف كان التعب ، في كل مرة ، يقصيه اكثر عن هدفه ، ولكن ارادة رجل محاصر قادرة على المعجزات . اندهشت لمرآه وهو يثب من الظلام فجاة ، بقوة جديدة ويستمسك بكعبي . ملأني نجاحه فرحا . امسكت يده المتصببة عرقا بين يدي وسحبته وفي اقل من لحظة كان جالسا امامي على اعلى الجدار ، مستنزفا ، منثنيا الى شطرين غير قادر على شيء اخر . لم يبق الا ان نرمي الحبل من الجانب الاخر وننزل الى المدينة النائمة . ان الحرية لم تعد الا لعبة اطفال .

كان اصدقاؤنا بانتظارنا . وكانوا يعلمون ان فرارنا لن يلبث ان يكتشف وان القوات البوليسية ستستخدم لمراقبة الخطوط الحديدية والطرق . وجاء الى خيالهم ان نختبيء في مكان لا يخطر على بالهم البحث علينا فيه ، عند مناضل يسكن على مسافة قصيرة من السجن في بيت صغير تكتنفه حديقة . ولسوء الحظ كانت زوجة هذا المناضل حبلى، على ابواب الوضع ، وفي غمار التاثر بمعرفة اننا مختفيان عندها ، بينما كانت الاذاعة والصحافة لا تتحدث الا عنا ، وضعت وضابطنا ذلك بشكل مميت .

ما العمل ، والاحتفال التقليدي الذي يرافق الولادة عندنا لا بد منه؟ ان هناك مجهولين يختفيان بالبيت ، واذا الغي الاحتفال فان الجيران سيشكون فورا بشيء ما ؟

وبعد كل حساب ، اختار المناضل اقامة الاحتفال ، وفكر في اسكاننا بكوخ من القصب ، في اقصى حديقته . ولكي يقصي عنا الاطفال ، الذين ينطلقون بعد الاكل لاشباع فضولهم في كل الزوايا ، فقد اعطانا، للمرافقة، كلبا هو اكثر كلابه ضراوة . انني لم ار في جنس الكلاب كله كلبا اقبح وانبح واشرس منه . كان لا بد من يوم كامل من التهديد والملاطفة والضرب لا اقول لكي يقبلنا بل لكي يتسامح بحضورنا . ثم انه كان يحصر كامل الوقت الذي فرضنا فيه عليه ، ملقيا علينا من حين لحين نظرات عدائية ...

كنا لابدين على فراش وثير ، نسمع كل ما كان يدور بين النساء من حديث في المطبخ المجاور ، وكان الاطفال يجولون قريبا جدا من كوخنا ، ولكن الكلب كان ، كلما اقتربوا ، يرفع عقيرته بنباح مسعور ، وعيناه تلتهبان وشعر رقبته مقشعر . لقد كان في حالة نخشى فيها ان يرمي بنفسه علينا في سورة غضبه .

ومما زاد الامور تعقيدا ان محساس كان قد اصيب بزكام اثناء الفرار . وكانت نوبات السعال الرهيب تاخذه من لحظة الى اخرى . وكنت اراه يستحيل الى لون القرمز من الجهد الذي كان يبذله لكتم السعال العنيف ، ولم يستطع الا ان يقول لي فقط : « الوسادة » وفورا غطيت راسه بالوسادة فانفجر بالسعال . ومن حسن الحظ ان الكلب الذي اغاظه هذا التصرف المفاجيء انفجر بدوره . وعندها اخذ نساء المطبخ يصرخن وينادين الاطفال باصوات تصم الاذان .

انتهى الاحتفال ، وذهب المدعوون . وابعد عنا الكلب ، وعاد كل شيء من حولنا هادئا. كان شهر مارس (اذار) يشارف نهايته. وكان الربيع قد وضع ، بالبليدة ، ازهارا وعطورا في كل مكان . وكنا نستنشق انسام المساء وننتشي بها ، كانت الالوان هي التي تسحرنا بالاخص بعد جدران السجن العمياء وبساحاته التي لا شمس فيها وعالمه الرمادي الباهت .

غيروا لنا المخبا اكثر من مرة ثم سفرنا الى الجزائر العاصمة ، حيث اصبحت الضيف السري عند عائلة وطنية . كم احب ان يكون في الجزائر عائلات كثيرة من نوعيتها . لقد كانوا كلهم ، كبيرا وصغيرا ، حتى الفتيات ، يتناضلون . ولما عاد السلام ، واصلت العائلة العمل ، من غير ان تستثير مصالحها الخاصة في اية لحظة . وكثيرا ما يتفق ان ازور افراد العائلة الان وان اشرب قهوة عائلية معهم ، مستعيدا ذكريات الشهور الستة التي قضيتها بينهم بعد فراري . وكانت احدى فتيات العائلة تدعى حسيبة ، وهي كائن جدير بكل اعجاب ، فهي لا تعرف الا الاخلاص ، وهي تهتم اليوم باطفالنا ماسحي الاحذية وابناء الشهداء . (1)

في الجزائر العاصمة حصل لي الاخوان في المنظمة الخاصة على اوراق مزيفة وبفضل مشاركة مستخدمي الباخرة ، ركبت كمسافري الباخرة : « مدينة وهران » منطلقا نحو مرسيليا . ومنها ذهبت الى باريس حيث قضيت بضعة شهور مختبئا في مسكن صغير مطل بنهج كادي بمون مارتر .. بالتاكيد كنت في باريس اكثر امنا مني في الجزائر العاصمة . ولكني امتثالا للانضباط كنت لا اخرج الا لماما . فقط من اجل الاتصالات الضرورية . وكانت حياتي هادئة ومنطوية .

في سنة ١٩٥٣ التحقت بمصر (التي كان الملك فاروق قد طرد منها قبل قليل) وكانت بداية الثورة تبدو شديدة الصعوبة . كذلك بدايتنا ، في القاهرة ، لم تكن اقل صعوبة . كنت انا واصدقائي انذاك مجهولين تماما في مصر . وكنا نعيش في ظروف جد حرجة : ان الفول في مصر مثل الارز في الصين ، وخلال اربعة شهور كان الفول هو الوجبة الوحيدة التي نتناولها يوميا . ووجبة الفول الجاهزة كانت تكلف ، على ما اذكر ، قرش صاغ • ووسائلنا لم تكن تسمح لنا بان نقدم لانفسنا شيئا اضافيا . ومع الثوريين المصريين كانت لنا في البداية بعض المصاعب ، منشؤها تباينا اللغوي . وما زلت اذكر انه عندما كنت للمرة الاولى اعرض الوضعية في الجزائر بالجامعة العربية ، كان لزاما علي ان اتحدث بالفرنسية ... ان الفرنسية لغة رائعة بالتاكيد ولكن استخدامها في مثل هذا المكان كان له مفعول الكارثة . اية فضيحة كانت ! واي اجتراء على المقدسات ! بينما كنت اتحدث امام اخوتي العرب ، وكنت ارى وجوههم تتشنج تحت تاثير الاندهاش . لقد كنت اتفهم مشاعرهم : العربية هي وسيلة ورابة اخوتنا في وقت معا . ولكن هل كانت لي حيلة اخرى في الامر ؟ كنت جزائريا من جماهير الشعب ، التي غاصت في الليل منذ قرون وقرون ، فنسيت لغة اجدادها النبيلة.

وكانت هناك اختلافات اخرى بيننا وبين المصريين . لقد كانت فكرتهم خلق وتمويل حركة كبرى مركبة من ثلاثة فروع وطنية لتحرير شمال افريقيا . هذه الفكرة لم تبد لي واقعية . ان وحدة المغرب كانت ابعد ما تكون عن التحقيق . فكيف نستطيع ان نتصرف كما لو كانت قد تمت ؟ ولماذا تطرح ، من البداية ، المشاكل الدقيقة لقيادة تعلو على الاوطان Supranationale بينما كان النضال في سبيل الاستقلال ، في كل من بلدان المغرب الثلاثة ، نضالا وطنيا بلا جدال ؟ ورفضنا ، شارحين للاصدقاء المصريين ، اسباب رفضنا . وقد اشمازوا في اول الامر ولكن فيما بعد اثنوا على وضوح موقفنا ، ونزاهته كذلك . ورفضنا قبول تمويلهم اذ اننا كنا غير متفقين مع مفاهيمهم . وفي النهاية ، هم الذين غيروا مواقفهم ووعدونا بكل مساعدة ممكنة عندما نعلن الثورة .

ولم نكن نطلب اكثر من ذلك ! لقد كنا ننتظر على احر من الجمر ! ولكن مصالي كان غارقا الى الذقن في مستنقعات الجمود . لقد كان في الوضع السائد مناقضة لا تطاق : كانت الوضعية في تونس ثورية . وكذلك كانت في المغرب . واما الجزائر فقد كانت بلا حراك . ان جناحي المغرب كانا ينتفضان ، اما جسد الطائر الكبير فقد ظل هامدا .

خلال شهور كان الاتجاه المتصلب في الحزب ـ المناضلون السابقون في المنظمة الخاصة ، الذين اعادوا تنظيمهم بصورة سرية ، على صلة بالخارج وبي ـ يبذل كل ما في وسعه ليدفع الاتجاه الرخو الى العمل. وفشلت كل مساعيه . لان المصاليين الذين اداروا ظهورهم للتاريخ لم يعودوا يحلمون الا بالانتخابات .

---

١ ـ ابناء المجاهدين الذين استشهدوا في الحرب يربون في مؤسسات تقوم ، بشؤونها الدولة . وماسحو الاحذية الصغار اخذوا من الشوارع في فبراير ـ ١٩٦٣ ـ روبير ميرل ـ

في خريف ١٩٥٤ اجتمع قادة المنظمة الخاصة في سويسرا وقرروا، خارج اطار الحزب وبدون علمه ، الشروع في العمل . لم نحدد يوما لشن العمليات ، لاننا كنا لا نريد ان نربط رؤساء الداخل بتاريخ محدد. وهم الذين ، على ضوء الوضع الداخلي ، اختاروا غرة نوفمبر .

في الواقع بدأت الثورة الجزائرية المسلحة بقليل جدا من السلاح: ٣٥٠ او ٤٠٠ قطعة فقط من البنادق الايطالية Mousquetons وصلت من ليبيا . ولقد وجدت المنظمة الخاصة عنتا شديدا في ادخالها الى الجزائر بطرق ملتوية : من طرابلس الى غدامس ومن غدامس الى بسكرا. ولقد نام هذا السلاح اكثر من عام على هذه الارض الجزائرية التي كنا نريد ، بعونه ، استعادتها . كان يستخرج من الارض في اماد منتظمة لينظف ويدهن ثم يلف من جديد في الخرق ويدفن في مكان جديد . ولم يكشف اي من مخابئنا قط ولم تقع اية خيانة .

وعندما آن الاوان وزع هذا السلاح في كل مكان تقريبا من البلاد وبالاخص في الاوراس ، الذي كنا نريد ان نجعل منه الحصن الاساسي للثورة . بيد ان اي قطعة سلاح لم ترسل الى عمالة وهران . لان أصدقاءنا المغاربة وعدونا بان يزودونا به . وضرب الموعد في مكان ما من الريف وفي الوقت والمكان المعينين ، حضر رجالنا ببغالهم . وانتظروا اياما طويلة ولكن احدا لم يحضر . وعادت قافلتنا بخفي حنين عشية غرة نوفمبر . واستولى على المسؤول المحلي الكبير اليأس . ولم تعد لديه الوسائل ليجبر رؤساء الداخل بخيبته المريرة ، لانه كان يخشى ان يظهر في اعينهم بمظهر الجبان . ولذا شرع في الهجوم يوم غرة نوفمبر بالوسائل التافهة التي كانت لديه وترك حياته في ذلك الهجوم.

كنا نعلق على غرة نوفمبر نتيجتين ، احداهما عظيمة الاهمية وبعيدة المدى : هي جعل الشعب الجزائري برمته يلتف حول عمل شنته اقلية نشيطة . والنتيجة الثانية كانت تعود لخطأ متوقع من الخصم : ولقد ارتكبها كما كنا نأمل ، وحصلنا منها على ربح عظيم . لم نكن ، في الواقع ، نجهل انه في حالة « ضربة قاصمة » لن تتأخر الحكومة الفرنسية عن حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية وسجن مسؤوليها. وذلك ، بكل ارتياحنا ، ما فعلته . وهكذا خلصنا من « ساسة دساسين » Politicards كانت تحسبهم شركاءنا ، وكانوا في الحقيقة يضايقون، على نحو رهيب ، عملنا بالبلبلة التي كانوا يشيعونها في افكار الجماهير. وهكذا بفضل الخصم اصبحت جبهة التحرير الوطني التي اسستها المنظمة الخاصة في غرة نوفمبر هي القوة السياسية الوحيدة للجزائر.

وعندما استبدل سوستيل (١) بليونار ادرك هذا الاخير مدى الهفوة التي ارتكبها اسلافه . فافرج فورا عن بعض المسؤولين ، وابقى على حزب « الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » L.U.D.M.A. الذي يقوده فرحات عباس ، واجرى اتصالات مع رؤسائه . وفكرة سوستيل كانت أن يشجع ، بطريق غير مباشر ، حركة قومية معتدلة تحبذ مثلنا نفس الاهداف ، ولكن بطرق قانونية انتخابية ... لقد كان المشروع ذكيا ولكنه فشل لسببين . اولا لان قادة « القومية المعتدلة » الانتهازيين بطبعهم ، لم يتخلفوا ، من اجل تغطية انفسهم ، عن الاتصال بنا ، ولم نتخلف من جهتنا عن افهامهم بصرامة بان الاعيبهم السياسية لن نتسامح معها الا في الحدود التي يمكن ان تخدمنا . وثانيا لان اعلان الثورة في الشمال القسنطيني ، يوم ذكرى خلع محمد الخامس ، ٢٠ اب ١٩٥٥ ، بعد عام من اندلاع غرة نوفمبر ، برهن للرأي العام الجزائري بان جبهة التحرير الوطني ابعد ما تكون عن التلاشي ، بل انها نجحت في توسيع وتكثيف عملها . وفورا استخلص « القوميون المعتدلون » الاعزاء على سوستيل ، كل النتائج المرغوبة (٢) .

(١) الحاكم الفرنسي العام للجزائر .

(٢) يشير بن بلة هنا الى البيان المسمى ببيان الـ « ٦١ » منتخب جزائري الذي جمعهم بعد ٢٠ اب ـ أوت ـ ، في قصر كارنو، بن جلول واعلنوا رفض الادماج . وهكذا فقد مشروع سوستيل كل قاعدة سياسية جزائرية . ـ روبير ميرل .

وبينما كانت الثورة تنمو ، كنت مع اصدقائي في الخارج انظم دعم العمليات بالسلاح Le Soutien Logistique وبنادق غرة نوفمبر لم تكن تستطيع ان تدعم طويلا حرب عصابات . كانت مهمتي الحصول على اسلحة اكثر جدية من الاقطار العربية وادخالها للجزائر .

واذا كانت مصر قد امدتنا ، منذ البداية ، بمساعدة عظيمة ، فان كل الاقطار العربية بدرجات اقل ، قد ساعدتنا . وأرى كل الاقطار العربية بما في ذلك الاقل تقدمية مثل الاردن والعربية السعودية . ان الملكة دينا الجذابة اعارتنا يختها لنقل السلاح الى الساحل المغربي . وفي البداية، كانت هذه الاعارة ، اذا تجرأت على القول ، بغير اختيارها، ولكن عندما اوقف الاسبان عمال اليخت واحتجزوه اثر عمليات قاموا بها ، اضطررنا للاعتراف للملكة باننا قد استعملنا يختها الجميل . وفورا عفت عنا . وشرعت في العمل عن طيبة خاطر ، وطلبت من الاسبان تحرير الحمولة والسفينة ، مؤكدة لهم انه بامر منها وعلى هواها كان يختها يتجول بدونها على مسافة ٣٠٠٠ كلم من مرفأ الارساء .

كان اليخت يدعى بنفس اسم الملكة . وكان سفينة عجيبة . وقد اصطدم في قلب الليل بكثيب من الرمال ، في خليج صغير ، بالساحل المغربي . كان ذلك في فبراير ١٩٥٥ ، كان المساء باردا . وكان البحر طاميا ، وقد مد حبل من السفينة الى الشاطىء ، وتعرى رجالنا ، وطوال الليل ، ظلوا ينقلون صناديق السلاح الثقيلة من اليخت « دينا » الى الارض اليابسة ، غارقين الى الصدور في الامواج المثلجة . كانوا مناضلين من مغنية وتلمسان اجتازوا الحدود ، قبل خمسة عشر يوما ، وظلوا ينامون على الارض مشتتين عند سكان الريف الساحلي . كانوا يرتجفون من البرد ، وكان الصندوق مثبتا ، بتوازن على الرقبة ، بيد، واليد الاخرى ممسكة بالحبل . وكان كل واحد منهم يقطع في كل مرة ٢٠٠ متر في هيجان بحري عنيف . لم يكن هناك قمر . واذا تركوا الحبل ، فلن يبقى لهم ، للاهتداء ، الا الضوء القليل المتقطع المنبعث من قنديل كهربائي .

اصيب بعض المناضلين بجروح ، وفقد اخرون سلامة بعض اعضائهم ، وقد اصيب بعضهم فيما بعد بذات الرئة ، ولكن ما ان طلع الفجر حتى كان اليخت قد فرغت شحناته ، والاسلحة قد دفنت في الارض ، وفي صباح اليوم التالي أمر الفلاحون الريفيون قطعان الغنم على رمال الشاطىء لمحو الاثار . ولكن الامور ساءت عندما شرع في تحريك اليخت . لان البوليس الاسباني تدخل في الموضوع ، فاكتشف غواصون في القعر امام مقدمة السفينة حربتي بندقية من طراز موزير Mauser وكما سبق ان قلت فان عمال السفينة اوقفوا . ولكنهم انطووا على السر كما تنطوي المحارة . واستمر البحث من الطرف

ـ التتمة على الصفحة ٦٠ ـ

الى ادباء العرب

ترحب « دار المكشوف » بنشر مؤلفات ادباء العرب ، من كل قطر ، نشرا سريعا ، متقنا ، وتتولى توزيع الكتب التي يعهد بها اليها في مختلف انحاء العالم ، كما ترحب بنشر ترجمات الكتب الاجنبية القيمة ، سواء أكانت في القصة ، او الاجتماع ، او النقد ، او الفلسفة ، او الدراسة ، او التاريخ ، وفي كل فن وخبر .

ترسل المخطوطات باسم ، **دار المكشوف** ، بيروت ، ص. ب. ٥٨١ .

الثـورة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الاسباني بغير اكتراث كبير . واذا كان التدخل الحازم من طرف الملكة دينا لم يقنع رجال البوليس كل الاقناع ، فقد مكنهم على الاقل من ذريعة كانوا يبحثون عنها لحفظ القضية .

بعد عملية اليخت دينا تمت عمليتان اكثر اهمية بكثير ، كانت اخراهما قد نفذتها سفينة حربية مصرية . ولم يعد الامر يتعلق ببنادق ـ موسكوتون ـ ولكن بالبنادق الرشاشة ، والرشاشات ، ومدافع الهاون والبازوكا ، وقذائف اليد الدفاعية ، وكمية كبرى من الذخيرة الحربية: اسلحة من صنع الماني وانجليزي ، كانت في معظمها جديدة ، عصرية ومتقنة .

وبفضل هذا التسليح استطاعت الثورة الجزائرية ان تتقدم الى العمل ، يوم ٢ اكتوبر ١٩٥٥ في جهة وهران ، الجهة الوحيدة التي بقيت حتى هذا التاريخ توصف بانها « هادئة تماما » في تقارير العدو. وبعد قليل ثارت جبال الونشريس بدورها . ومضى الزمن الذي كان فيه الخصم يأمل قهر الثورة بعزل الاوراس . وغدت الان جبهة التحرير الوطني تخوض المعارك في كل انحاء الجزائر الثائرة .

وفي طول الشمال الافريقي كانت الجماهير العربية قد حملت السلاح ، لان ثورة جهة وهران كانت قد نظمت بالاتصال مع الثوار المغاربة الذين كانوا يشنون العمليات في الريف . بل انهم ارسلوا بكتائب في اتجاه تعزه (١) والاطلس . اذا كانت ثورة الشمال القسنطيني قد احبطت مناورة سوستيل فان الانطلاق المثير يوم ٢ اكتوبر من نفس العام لجهة وهران والريف قد احبط مناورة جراندفال Grandval بالمغرب . واضطر الخصم ، خشية من خسران كل شيء ، الى الاستسلام. فاسرع لإعادة محمد الخامس الى عرشه ومنح المغرب الاستقلال في نطاق التكافل L'interdépendance

لقد ولد استقلال المغرب واستقلال تونس ايضا تأثيرا عميقا على الجزائر . فمن الناحية السياسية بات من المستحيل حرمان الجزائر مما حصلت عليه جارتاها . ولكن ايقاف اطلاق النار في المغرب ـ من جهة اخرى ـ طرح علينا مشكلا خطيرا : ان الجيش الفرنسي من الان فصاعدا مطلق اليدين ليركز علينا عمله . وقد كانت استراتيجيتنا ترتكز على تشتيت قواه في كل انحاء المغرب . وعندما حل السلام بتونس والمغرب ، اصبحنا وحدنا ، من الان ، الذين نقاوم هجمات اسلحته .

اننا لا نستطيع ان ننفي ان بعض المسؤولين الجزائريين ، في ذلك العهد ، شعروا بالمرارة . لقد انتشلنا من النار فستق الاستقلال ، واخواننا كانوا على الحدود يتاهبون لاكله . ولكني فكرت بان الغضب لم يكن يجدي . بل بالعكس كان ينبغي ان نحصل من الوضع الجديد على اقصى ما نستطيع من المزايا للجبهة . وذهبت لمقابلة محمد الخامس في مدريد . ووجدته رجلا بسيطا ذكيا في منتهى النزاهة ، ومهتما كثيرا بعواقب ايقاف اطلاق النار المغربي علينا . قد ابالغ بعض الشيء اذا قلت اني شعرت لديه بنوع من تانيب الضمير في حقنا : هذا الاحساس يشرفه كثيرا لانه ، فيما يخصه ، لم يكن له شيء ياخذه على نفسه . وانتهت محادثتنا بنتائج هامة . لقد وعدنا محمد الخامس ، في غيبة المساعدة العسكرية المباشرة ، بمساعدة كبرى . لقد اعطانا ، فيما اعطانا ، تأكيدا صريحا بان تكون الحدود المغربية في كل لحظة بالنسبة لنا حدودا صديقة ، وممكنة العبور ، دخولا وخروجا ، للاسلحة والرجال .

---

(١) منطقة تقع بالمغرب شرقي فاس على الحدود الجزائرية ـ المترجم

بيد انني واصلت ارسال السفن المحملة بالسلاح الى الساحل الريفي ، بحظوظ في النجاح مختلفة ، ولكن ايا منها لم يكن بالنسبة لنا نكبة كما كانت سفينة لاتوس L'Athos ، التي اختطفتها ، كما هو معروف ، البحرية الفرنسية . لقد كنت اقدر ان هذا النشاط السري القوي الذي انسحب على هذه العمليات لن يمر علي بدون مفاجآت واخطار .

غير ان العجيب ان المتاعب لم تأتني من المخابرات الفرنسية بل من رجال المخابرات الاميركية . لانهم ، فيما اعتقد ، وجدونا جذريين اكثر من اللازم . لذلك انشأوا في ليبيا ، بالاعتماد على بعض العناصر المعتدلة في جمعية العلماء (١) وفي حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، شبكة تحت قيادة اميركي مسلم تعمل بازاء شبكتنا .

---

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حركة اسسها المصلح الجزائري العظيم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي يعتبر موضوعيا وتاريخيا من اكثر زعماء القومية العربية في الجزائر ، بعد الامير عبد القادر ، عداء للاستعمار وفذاذة في الرأي ، وانفتاحا على روح العصر . كان هدفه الاول من انشاء الجمعية محاربة طبقة الكهنوت والشيوخ ، المرتبطة فكرا ومصلحة ، بالطبقة الاستعمارية الغازية ، والتي كانت تروج من المنابر سموم الايديولوجية الاستعمارية ، جاعلة من الاسلام تبريرا وقحا لـ « ضرورة » الحضور الاستعماري ، ونشر الذهانات Psychoses المرصودة لتنويم الوعي الشعبي ، وامتصاص تمرده واستيائه من نظام الاحتلال المهين ، واغراق الروح الكفاحية للشعب في مخاوف رعب خرافي .. لتفصلها اكثر فاكثر عن قضايا عصر الثورة العالمية المعادية للاستعمار والاستغلال .

لم يكن ، اذن ، غريبا في منطق اوضاع ذلك العهد ان يغدو ابن باديس هدفا لكل السهام الرجعية : اتهموه بالالحاد والشيوعية . واعلنت مجامعهم نبذه . وكان ائمة المساجد ، الذين تمولهم السلطات الاستعمارية، يلعنونه من المنابر في صلوات الجمع . وكانت ذريعتهم في هذه الحملات الحاقدة بعض الاقوال المأثورة عليه مثل : « اللهم اجعلنا في الدنيا من اهل اليسار وفي الاخرة من اهل اليمين » و « الشيوعية خميرة الارض » ... وهي كلمات قالها او كتبها ، بشجاعته المعهودة ، في مواقف حاسمة خذله فيها اكثر انصاره وانجده فيها دعم اليسار الحازم . الا ان السبب الجوهري لتألب الرجعية الدينية العميلة عليه لم يكن مجرد اقواله بقدر ما كانت اعماله التقدمية والوطنية : بينما كان رجال الدين مجمعين على ان اختلاط الفتى بالفتاة رجس من عمل الشيطان ، انشأ ابن باديس سنة ١٩٣٤ اول مدرسة مختلطة في الجزائر للبنين والبنات. وبينما كان بعض قادة البورجوازية « الوطنية » في الجزائر يطالبون بالادماج ، اي باعطاء الجنسية الفرنسية لكل الجزائريين ، كان ابن باديس يرد عليهم في مجلة « الشهاب » نثرا ونظما : وما زال نشيده الذي رد به على فرحات عباس الى اليوم على كل لسان :

شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله او قال مات فقد كذب
او رام ادماجا له رام المحال من الطلب

ولكن بعد وفاته تحولت ، مع السنين ، الجمعية الى حزب سياسي لبقايا الاقطاعية والبورجوازية الزراعية المنغلقة ، التي قادت على عهد السلطة الثورة ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ ، حملات التكفير ضد دعاة الاصلاح الزراعي ، واختلاط المرأة بالرجل في العمل والدراسة ، وتحرر المرأة الجزائرية من طغيان الاب والزوج ورق القرون ، وانتهاج سياسة حازمة ضد الامبريالية الاميركية وتدخلاتها السافرة في كوبا والكونغو وفيتنام وسان دوماجو . ومعروف ان جمعية العلماء وقفت من الثورة المسلحة ، بالاخص ، في البداية موقفا معاديا مرة وانتهازيا مرة اخرى . وكان كثير من اعضائها يصفون الثوار بنفس النعوت التي كانت تصفهم بها سلطات الاحتلال ، باستثناء قليل من مناضليها مثل العربي التبسي ورضا حوحو ، الذين وقفوا مواقف شريفة من الثورة . ـ المترجم ـ

كان للمخابرات المركزية الاميركية ، هي الاخرى ، بكل وضوح ، هدفان : تسليح القوميين الجزائريين ضد فرنسا (التي كانت حليفتهم في الحلف الاطلسي) وذلك لتقطف منهم غداة الاستقلال ثمار مساعدتها، ومن جهة اخرى دعم المعسكر الجزائري المحافظ على حساب الجزائريين المتهمين بالاشتراكية .

لا هذا ولا ذاك من الهدفين قد نجح . واذا كانت الشبكة الاميركية تشتري ، في الواقع ، السلاح ـ بكميات غير كافية طبعا ـ وقد نجحت مرة او مرتين في ادخاله للجزائر ـ فانها كانت تسلمه لاناس ليست لهم اية رغبة في القتال ، وانما كانوا فور تسلمه يدفنونه الى الابد . الا ان هذه الشبكة ، بالنسبة لنا ، كانت بالعكس تضايقنا بشكل وبيل. ذلك ان عناصر هذه الشبكة كانوا صاخبين وثرثارين ومتعفنين، ومثقلين بالدولار ، ويعيشون ، بالاضافة الى ذلك ، حياة مسرفة ، وبذلك تمكنت المخابرات الفرنسية من رصدهم بسرعة ، وبحماقتهم تمكنت هذه المخابرات من اكتشاف شبكتين من شبكاتنا بروما وليبيا .

هؤلاء الهواة كانوا يحرقوننا . فقررت ان ادخل في العمل ضدهم. وقد التقيت في روما بالاميركي المسلم الذي كان يقود الشبكة . وخلال مشهد عنيف ، هددته بتصفية شبكته اذا لم تتوقف عن العمل . ولكي ابرهن له اني لا امزح حبست الرجال الذين كانوا يأتمرون بأمره في المغرب . ولم اطلق سراحهم الا بوعده الصريح بالكف عن الظهور .

بينما كنت اطارد الشبكة الاميركية ، كنت انا نفسي مطاردا من مصالح المخابرات الفرنسية ، التي ظهرت لي للمرة الاولى في القاهرة في اوائل سنة ٥٦ . كنت في مكتبي الصغير بصدد مكالمة تليفونية ، عندما دخل علي الشاويش وبيده طرد . ورفعت رأسي :

ـ ما هذا ؟

ـ انه طرد باسمك حمله اليك تاكسي من سميراميس .

كان اسمي ، طبعا ، اسما مستعارا يعرفني به قليل جدا من الناس في القاهرة .

ـ هل السائق هنا ؟

ـ ايوه . انه بالاسفل ينتظر البقشيش .

ـ اعطه اياه وسلمه الطرد ، وقل له ان يعيده للمرسل . افعل بسرعة .

ولكن القنبلة كانت زمنية بكل دقة واحكام . فلم يكد التاكسي يقطع مئة متر حتى انفجرت بدوي مرعب . وعندما وصل رجال الشرطة الى مكان الحادث وجدوا الصندوق الخلفي للسيارة معلقا بشرفة في الطابق السادس . اما السائق البائس ـ ضحية بريئة لحرب لا يعلم منها شيئا ـ فلم يعثروا من جسمه الا على بعض الحطام .

وبعد هذه الحادثة قال لي صديقي محساس الذي كان مسؤولا عن الامن :

ـ يجب عليك كليا ان تحافظ جيدا على نفسك . انك متفائل عن نفسك كثيرا . ليس عندك حتى قطعة سلاح .

وبعد هذه الكلمات ادخل في جيبي مسدسا . ورفعت كتفي : مسدس ضد قنبلة !! ولكني احتفظت بالسلاح . وتركت مصر الى ليبيا ، بدون ان اشك في ان فخا اخر ينتظرني في طرابلس..

ان ليبيا هي احب قطر عربي الي ، باستثناء الجزائر طبعا.وقليلة هي الشعوب التي كانت تبدو لي جذابة مثل الليبيين . انهم بسطاء ، اذكياء ، ودودون . واستطيع ان اقول ان حلاوة الطقس انسابت الى ارواحهم . انني اظل مشدوها عندما افكر فيهم ، وفي لطفهم الذي لا ينضب له معين ، وفي قدرتهم الرائعة على الصداقة ، وفي طهارتهم ايضا ، لانهم عاشوا بعيدا عن قلاقل العواصم الكبرى فان الفساد لم يجد اليهم سبيلا * وحتى البورجوازيون الرجعيون في ليبيا يملكون طريقة ما في التصرف تجعلهم ، من بعض الجوانب ، لطفاء .

عندما عدت الى ليبيا بعد الاستقلال ، خصني الليبيون باستقبال لن انساه ما دمت حيا . لقد غمروني بلطفهم وكرمهم فلم اعرف كيف ابرهن لهم عن صداقتي وحبي ، وقد قلدوني لقب دكتور شرف من جامعة بنغازي . وقد كنت نصف متأثر ونصف ضاحك وانا اذكرهم ، بينما كنت اعانقهم ، بان كل ما عندي من الشهادات الفرنسية هي الشهادة الابتدائية ـ متاع خفيف للقب جد ثقيل ـ ولكنهم لم يريدوا ان يصغوا الي . واصبحت دكتورا شرفيا ـ بفضل شعب من اكثر شعوب العالم لطفا وحبا .

كنت في طرابلس ، سنة ١٩٥٦ ، عندما تترك لي مواعيدي قليلا من الوقت ، اذهب للنزهة في الحديقة الكبرى بالمدينة . وفي هذه الحديقة اعطيت موعدا ، قبل ١ نوفمبر ١٩٥٤ بايام قليلة لمصطفى بن بو العيد الذي اصبح فيما بعد القائد الكبير لثورة الاوراس . ولما كان بلا اوراق هوية فقد كان عليه ان يمر على الجنوب التونسي ، ويمشي في الصحراء ، ميتا من العطش ، طوال ايام . ثم وصل مستنزفا ورجلاه داميتان . وفورا اعتقلته السلطات الليبية . وعلمت بذلك وبعد زمن قليل نجحت في اطلاق سراحه . وقضينا معا عشرة ايام لضبط خططنا. كنا نحن الاثنين جد فقيرين الى حد انه لم يكن لنا صالون للاكل غير حديقة طرابلس الكبيرة . وكل ما عندنا من طعام كان قليلا من الخبز والعنب . ولكن قلبينا كانا عامرين بالايمان بميلاد عالم افضل .

عاد بن بولعيد لمقابلتي في اوائل ١٩٥٥ ، ولكن هذه المرة اوقفه رجال الدرك التونسيون . وخلال المعركة للتخلص قتل واحدا منهم . وفر . ولكنهم ادركوه . وسلموه للسلطات الفرنسية التي حكمت عليه بالاعدام . ونجح ، لست ادري بأي معجزة ، في الفرار يوم ٤ نوفمبر من نفس العام ، والتحق بثواره في الاوراس . ولم تكد تمضي بضعة شهور كان خلالها مهتما باعادة تنظيم فرقه ، حتى جاءه الفلاحون يحملون اليه جهاز ارسال كانت احدى الطائرات الفرنسية قد اسقطته ((خطأ)) بعيدا من مركز عسكري . وكان جهاز الارسال محشوا بالبلاستيك المتفجر فمزق بن بولعيد . كنت اتنزه حزينا في الحديقة حيث تغدينا بزهد قبل عامين . كنت أتذكر صفاء بن بولعيد وقوته الروحية، وصبره امام المحنة ، ولم اكن اشك مطلقا وانا استعيد ذكرى المجاهد الكبير الذي اختفى ، أن الموت كان معي على موعد ، في نفس اللحظة ، بطرابلس .

كان لليد الحمراء اسم وكان لها وجه . انها تدعى جان دافيد . لماذا جعل هذا الرجل ، الذي كان كولونا فرنسيا يعيش في تونس ، نفسه في خدمة اليد الحمراء الفرنسية ؟ ولماذا قبل مهمة قتلي . ان الذين استعملوه يستطيعون وحدهم اليوم ان يقولوا ذلك لنا . سواء كانت اليد الحمراء ام لم تكن فرعا من الاستخبارات الفرنسية ، فقد جعلت الناس في ذلك العهد يتحدثون عنها كثيرا . ونجحت في القيام ببعض المحاولات ضد مناضلينا بالمانيا .

على كل حال كان جان دافيد قتالا كفؤا . لقد كشف عن ذلك البحث . وقد نظم محاولة اغتيالي بعناية كبيرة خلال ستة شهور لانه نظرا لعلاقاتي مع الحكومة الليبية ، فقد كان يظن اني محرس وهو ما لم اكنه . هذه العلاقات كانت موجودة ، والمساعدة كانت حقيقية ، ولكنها كانت تعطى لنا في سرية مطلقة ، لان ليبيا كانت ما زالت تحت النفوذ الاجنبي . ورئيس الشرطة كان انجليزيا .. كان علي اذن ان اعمل في شروط السرية التامة . وان امر متواريا عن انظار الجميع ، بما في ذلك البوليس ومصالح الامن الليبية .

ظل جان دافيد يحضر خطته مدة ستة شهور ، مقدما نفسه على انه نائب دار تجارية . وكان لا يفتأ يتردد بين تونس وليبيا . وقد عود الجمارك الليبية والبوليس الليبي على رؤيته يمر بالليل والنهار في سيارته ، دائما متأدبا ودائما بشوشا ... واخذ الليبيون بلطافة هذا الاوروبي ، وبالتعود ، اذا جاز القول ، على مروره المتعاقب بدأوا يعفونه شيئا فشيئا من الاجراءات الطويلة التي يفرضها على الاجنبي الراكب للسيارة عبور الحدود . وهذا التعود كان ، بالنسبة لجان

(٥) الكولون هو اسم طلق على الفرنسي الذي يمتلك الارض بالمستعمرات . واسمه مشتق من لفظ الاستعمار . ـ المترجم ـ

دافيد ، ذا اهمية ، لانه بعد ان يضرب ضربته كان عليه ان يفكر في امنه ، وفي العودة الى تونس باسرع ما يكون .

هناك عواصم لا يستغرب المرء ان تصبح اوكارا مغلقة للعملاء السريين . ولكن طرابلس لم تكن في عداد هذه العواصم . فلا شيء اكثر هدوءا من هذه المدينة المحبوبة . انها تستطيع دائما ان تستغني عن البوليس لان الناس مسالمون . كنت اسكن في فندق جد صغير ولكنه نظيف يدعى : اكسيلسيور Excelsior وكان صاحب الفندق ينام مبكرا . ولم يكن الفندق محروسا بالليل الا من حارس لا يحرس الا قليلا . كلما كنت اعود لانام في ساعة متأخرة ، لاني كنت احدد مواعيدي مع الليل ، كنت اجده دائما غافيا خلف المنضدة .

في ذلك اليوم عندما عدت الى الفندق ـ اكسيلسيور ـ حوالي الساعة الواحدة صباحا رأيت سيارة واقفة امام الفندق . وعرفت منها انها كانت سيارة اوروبي قطعته بالطريق في نفس الامسية عندما كنت خارجا من الفندق . ولاحظت خفية ان الكرسي الخلفي كان مملوءا بالحقائب ، كما لو ان صاحب السيارة كان يستعد للسفر .

كان الحارس ، بطبيعة الحال ، نائما . فاخذت مفتاحي من غير ان اوقظه . وصعدت للطابق الاول . وفتحت بابي وامررت يدي من انفتاحة الباب القليلة لانارة الغرفة . وادرت الزر ولكن شيئا لم ينره . فكرت : « القنديل محروق » وتقدمت خطوة للدخول الى الغرفة. وفي هذه اللحظة بالذات ، شعرت في اعماقي باشارة الخطر الخفية التي تنذرنا غالبا بعد ربع الثانية الاخير ، بان خطرا يهددنا . وتوقفت: ربما كان مهاجمي قد احس بترددي ، لانه لم يكن ينتظر ان اعود فاغلق الباب . ثم ضرب . ولكنه ضرب قبل الاوان . لا على الرقبة كما كان ينبغي ان يفعل . ولكن على جانب الرأس . كانت ضربة رهيبة . ولكني لم اسقط ولم افقد وعيي . وشددت جمع يدي في اتجاهه فضربته وضربني هو الاخر . احسست باني اوشك ان اتلاشى . وفكرت في مسدس محساس فتراجعت وانبطحت على الارض ثم اطلقت النار . اطلقت شحنة بكاملها في اتجاهه دون ان اصيبه ، واعتقد انه اطلق النار ايضا لان زجاج النافذة التي كانت خلفي قد تطاير شظايا. وكانت الطلقات تدمدم بقوة تصم الاذان . ورأيت هيكله ينسل في الظلام من زاوية الباب المضاءة وادركت انه يلوذ بالفرار .

وقفت مترنحا ، واحسست بسائل حار يسيل على وجهي ، ودون ان افكر بانه لم يعد عندي ولا طلقة واحدة لمسدسي لحقت بخصمي . وادركت الدرج ، وما ان وضعت رجلي في الدرجة الاولى حتى سقطت مغشيا علي ورحت اتدحرج الى اسفل .

واشعرت الجهات المختصة بالتلفون . فاقيم سد في الطريق . ولكن جان دافيد هجم على السد فابتعد رجال الدرك ومر . ولكنه ارتكب خطأ : انه احسن الظن كثيرا باللطافة الليبية . فعلى بعد بضعة كيلومترات من الحدود ، اقيم دونه سد اخر ، واراد ان يجتازه بالقوة مثل السابق . ولكن الرصاص انهال عليه فسقط قتيلا .

***

ضمدت جراحي . وعولجت ، وشفيت بسرعة . لقد منحني القدر وقف التنفيذ ، ثم انذرت بالخطر في روما . ولكن لم يحصل شيء خطير . لقد كنت احمي نفسي بحركتي الدائبة . لا ابقى ابدا طويلا في مدينة واحدة ، وجل الوقت كنت ، لضرورة ارسال السلاح ، انتقل من مكان الى مكان ، حتى اني استطيع القول اني امضيت حياتي في الطائرة بلا ادنى مبالغة . كنت في الاجواء بلا انقطاع ، في مكان ما بين القاهرة، وطرابلس ، وروما ، ومدريد ، وتطوان .

وما زلت اذكر ، باني كنت عندما اجلس على مقعد الطائرة واشد حزامي ، افكر باني ، هنا على الاقل ، سأتمتع باستراحة : وساكون ـ لبضع ساعات ـ في امان تام .

كنت مخطئا . والمستقبل لم يتوان عن افهامي ذلك .

ترجمة العفيف الاخضر

في الاسواق

المعقول واللامعقول في الأدب الحديث

تأليف كولن ولسون

ترجمة انيس زكي حسن

دراسات هامة رائعة عن تيارات الفكر الحديث في الادب والفن ، بقلم كاتب من اشهر كتاب العصر

الثمن ٤٥٠ ق. ل